

ماوية ملكة العرب وإشكالية تاريخ العرب قبل الإسلام في بلاد الشام

الدكتورة شكران خربوطلي

جامعة دمشق

قسم التاريخ

إنّ البحث عن تاريخ القبائل العربية في بلاد الشام قبل الإسلام حديث مضطرب، ويكتنفه الغموض ومتعب، وذلك لأن الصورة التي تقدمها المصادر العربية حول تعاقب ظهور القبائل في بلاد الشام وسلطانها لا نستطيع الأخذ بها لعدم معاصرة أصحابها لما كانوا يكتبون عنه، فالعرب بدؤوا يظهرون على مسرح التاريخ كمجموعة بشرية لها هويتها الجماعية، ونظمها، وعلاقاتها الخارجية منذ القرن العاشر ق. م. على أقل تقدير^(١).

بينما بدأ أول تدوين لأخبار العرب السابقين للإسلام في عهد معاوية بن أبي سفيان في أواخر القرن السابع الميلادي، ومثل هذه المسافة الزمنية الطويلة بين وقوع الأحداث وتدوينها أمر يُضعف بالضرورة من قيمة هذه الكتابات.

أضف إلى ذلك أن كل ما يتعلق بالشام من أخبار قبل الإسلام، والأخبار الإسلامية لاسيما العصر الأموي، وقف منها الرواة العراقيون بعد الثورة العباسية بإيحاء من السلطة أو لأسباب أخرى موقف المتجاهل إن لم نقل موقف الراغب بالطمس وهذا ما حدث.

وما ورد لدى يوسيفوس الذي توفي حوالي نهاية القرن الأول الميلادي، لا كبير قيمة له لأنه لم يكتب عن قبائل العرب وأحوالها مباشرة، وإنما جاءت كتابته عنها بشكل جانبي وغير مباشر في أثناء حديثه عن تاريخ اليهود، وهو حديث يعتمد على التوراة^(٢)، فقط لا يجوز الأخذ به، فالتوراة في سفر المكابيين الأول والثاني^(٣)، لا يجوز الاعتماد عليه والوثوق به، لأنه يتعارض مع المعطيات الأثرية، مثلاً دولة الأنباط ليس لها ذكر، والحديث مع دولة تدمر مغلف بالأسطورة، والصور عن تعلقب ظهور القبائل وسلطانها لم يستطع الباحث أن يأخذها كالضجاعة، والغساسنة، وكتب، والدراية، حول دولة هيرود وخلفائه الأدوميين في ظل الرومان، ودولة الأنباط، لم يعد بالإمكان الاعتماد عليها والوثوق بها حيث أن المعطيات الأثرية تفيد أن دولة هيرود، الأدومية، لم تكن يهودية، بل كانت تعبد بعن السماء، وهذا يغير كثيراً من صورة الأحوال، ويرشدنا إلى القول: بأن المكابيين لم يقيموا دولة ولم يحكموا في القدس، ولا في الضفة الغربية وللاصاف القول: إنه توفر لهم نوع من سلطة عشائرية محدودة قرب نابلس في الجبال، وأن هيرود لم يكن له سلطان على القدس ولم يبن في القدس ما يسمى بالهيكل الثالث وهذا كله يأتي من خلال الدراسات المتأنية للنقوش الصفوية، والنقوش النبطية العديدة، آخذين بعين التقدير أنه ما يزال هناك بعض النقوش النبطية، والصفوية، لم تنتقل للعربية.

ولعل بعض تاريخ العرب قبل الإسلام، وخاصة في قسمه الشمالي لا يمكن أن نتعرف عليه إلا من خلال المصادر الكلاسيكية "اليونانية والرومانية والنصرانية القديمة". فهي صحيحة ولكنها شحيحة لأن مؤلفوها استقوها من رجالات الحملات الرومانية واليونانية التي حاولت الاستيلاء على بلاد العرب ومن الرحالة والتجار والملاحين الذين جابوا هذه البلاد، وقد تحدثت هذه الكتب عن وجود علاقات قديمة بين سواحل بلاد العرب وبلاد اليونان والرومان والفرس، وعن تسرب المسيحية إلى شبه الجزيرة العربية، فالمصادر البيزنطية للقرنين الرابع والخامس تعكس اتجاهين سياسيين

للإمبراطورية فيما يتعلق بالعرب، أما أحدهما فبههدف إخضاعهم وربطهم بمعاهدات تتم إما عن طريق القوة أو بالطرق الدبلوماسية، وأما الاتجاه الآخر فهو أن تدخلهم في عقيدتها النصرانية وهو فعلاً "ما بذلت فيه الإمبراطورية جهدها لتقريب العرب إليها مثلما فعلت مع غيرهم من الشعوب البرابرة"^(٤).

وفي وسط هذا وذاك من الضبابية وعدم الوضوح وجدنا أنفسنا مع قضية لم تتحدث عنها إلا المصادر البيزنطية ألا وهي قضية ماوية ملكة العرب حيث يستأثر الاهتمام الخاص بها بإعطاء فكرة عن طبيعة العلاقات التي نشأت بين القبائل العربية وبيزنطة. إن مؤرخي الكنيسة وحدهم الذين حفظوا ذكرها أمثال أميانوس ماركلينوس، وسوزومينوس، وروفينوس، وأوسيبوس، وسقراط، وثيوفانيس، وميخائيل السرياني، وشارب... وغيرهم. لذا لا يسعنا المقام إلا الاعتماد على هؤلاء أو على من اعتمدوا عليهم في إخراج صورة هذه الملكة. فأميانوس ماركلينوس ولد في أنطاكية ٣٣ م، وعاش في القرن الرابع الميلادي كتب كتاباً باللاتينية أسماه: "التواريخ، غطى فيه الحقبة ما بين ٩٦-٣٧٨ م، وقد اندثرت من هذا الكتاب الأبواب الثلاثة عشرة الأولى، وتبقى منه القسم الذي يبدأ بالبواب الرابع عشر، وينتهي بالبواب الحادي والثلاثين، وهو يغطي الأحداث الواقعة بين عامي ٣٥٣-٣٧٨ م، وعلى الرغم أن هذا المؤرخ يشير إلى العرب بشكل عرضي ضمن وصفه لبعض الأحداث مثل غيره من مؤرخي هذه الحقبة إلا أن إشاراتة تستمد قيمتها من معاصرته للأحداث التي كتب عنها. وفي بعض الأحيان من رؤيته لها في أثناء الحملات التي اشترك فيها كرجل عسكري وموضوعيته في الكتابة"^(٥).

أما سوزومينوس ٤٩١-٥١٨ م، فقد ذكر في كتابه عند حديثه عن الشام، شيخاً عربياً عاش أواخر القرن الرابع للميلاد، وكان بدرجة فيلارخوس، أي كان عاملاً لدى الروم على عرب الشام، ويمكن أن نقول: إنه اسم عربي أصيل حُرّف فصار على الشكل

المذكور "ضجعم" في الأصل، وإليه ينتسب الضجاعة^(٦)، وأن هذا العامل العربي تنصّر، وتنصّر معه عدد كبير من أتباعه^(٧)، وأن الله وهبه ولداً، كما قيل بفضل دعله النساك النصارى وأن الأمر صار من بعده إلى ماوية، وقد حاربت الرومان في عهد القيصر "والنس" أوفانيس، في أواسط القرن الرابع للميلاد، وانتصرت غير مرة عليهم، ثم تصالحت معهم، وكان من جملة ما اشترطته عليهم أن يسقف على عربها راهب يدعى موسى، كان يتعبد في بادية الشام فوافق على ذلك وكان الراهب كاثوليكيّاً معارضاً لمذهب أريوس^(٨).

وأما روفينوس، الذي نقل كتاب أوسيبوس من اليونانية إلى اللاتينية، فيروي: "أشعلت ماوية ملكة القبائل العربية نار حرب شعواء بفلسطين وبمنطقة الثغور العربية، وخرّبت فيها القلاع والمدن، ونسفت القرى والأرياف، ولقد أضعفت بهذا القتال الدائم القوات الرومانية، وأهلكت الكثيرين، واضطرت الباقين إلى الهرب"^(٩).

ولم تقبل ماوية بعقد الصلح إلا بشرط أن يجري تنصيب قس من قبيلتها يدعى موسى أسقفاً، وموسى هذا الذي عُرِف في حياته بأعمال البر والتقوى، رفض أن يجري تنصيبه بالاسكندرية على يد لوقيا، لأنه كان يعدّه هرطقياً، وأنبه على اضطهاده الشديد لرجال الدين الأرثوذكس، وطالب بأن ينصب على يد أولئك الأساقفة الذين أرسلوا إلى المنفى^(١٠).

وقد جعل هذا المصدر ماوية عربية بدليل أنها اشترطت تنصيب موسى من قبيلتها، وموسى اسم عربي.

ولقيت هذه القصة استقطاباً لدى سقراط، فأشار إلى ذلك قائلاً: إن رغبة ماوية في تنصيب أسقف عربي الأصل لنصارى قومها أمر مفهوم^(١١)، ولكنه يتابع أنها زوجت ابنتها من الاستراتيلات فكتور، ولا مجال للاعتقاد بأن الروم قد فرضوا هذا الزواج لأن ماوية هي التي أملت بنود السلام بعد انتصارات شعبها العسكرية، وعلى الأرجح

أن هذا الزواج المدهش بين عسكري بيزنطي طاعن في السن وابنة ملكة عربية مظفرة هو العقيدة الدينية المشتركة^(١٢)، ولهذا ظلت محافظة على الصلح الذي عقدته مع بيزنطة والذي يتمثل في حفظ السلام مع الإمبراطورية البيزنطية والارتباط معها بحلف عسكري ومد يد العون وقت الضرورة إليها^(١٣). حيث أدت الجهود المشتركة إلى رد العدوان عن أسوار القسطنطينية.

وبعد ذلك استرشد سوزومينوس، بمصنفي روفينوس، وسقراط، فأورد قصة ماوية بتفصيل أكثر ممن سبقه، فحوى تفاصيل مباشرة من الحياة اليومية، وأضاف إلى القصة استطراداً تاريخياً عن أصل بني اسماعيل، وبداية انتشار النصرانية بينهم^(١٤). ولم يُشير إلى أصل ماوية، ولكن يبدو أن رأيه متفق مع روفينوس.

أما ثيوفانيس، فيقول: إنها كانت نصرانية من أصل رومي وقعت في الأسر فاختصر بها ملك العرب لجمالها، وبهذا وجدت طريقها إلى العرش^(١٥). ثم يحدثنا عن الخراب الذي ألحقه في ضواحي القسطنطينية.

ويتفق ميخائيل السرياني مع ثيوفانيس حول أصلها الروماني^(١٦). وذلك تماشياً مع المصادر الأولى فإن شغف ماوية بالقتال، وإخضاعها للعرب واشترائها تنصيب أحد العرب أسقفاً كل هذا ينسجم مع كونها تنتمي إلى قبيلة عربية. وبفيدنا إميانوس مارسيلينوس القول ثانية، فيروي قصة الدفاع عن القسطنطينية على نحو يختلف شيئاً ما، فقد ذكر أن عامل عربي قال: إنه من اسانيته، وقال إنه من السرسين^(١٧)، حكم ٣٩٧م، في أيام يولييان جوليان ٣٦١-٣٦٣م^(١٨).

وقد فسر بعضهم كلمة اسانيته "الغساسنة" أي أن الكلمة من أصل غساني^(١٩). وأن السرسين تعني "الشرقيين" غير أن هذا معناه أن حكم الملكة ماوية كان في أيام الغساسنة، وهذا ما لا تؤيده الموارد التاريخية المتوفرة لدينا الآن، لأنه على الأرجح أن الملكة ماوية حكمت قبل تولي الغساسنة الحكم رسمياً من الروم.

وقد أفادنا شارب، أن ملك العرب النازلين في سيناء وما جاورها، لما مات في أوسط القرن الرابع بعد الميلاد، خلفته امرأته ماوية، فتحللت من قيود معاهدة كانت مع الروم، وحملت برجالها على فلسطين وسورية، واستولت على مدينة بطرا "الحجر" ويممت شطر مصر حتى برزخ السويس، فاضطر الإمبراطور فالنس للاستعانة بسادات القبائل للتغلب عليها، ولما وجد أن القبائل لم تفعل شيئاً اضطر إلى التفاوض معها، وترقيتها إلى رتبة ملكة وتجديد المعاهدة بشروط ترضاها ماوية^(٢٠). وذلك لأن أهمية البدو السياسية في أواخر العصور القديمة نابعة بالتحديد من كونهم تجمعات واسعة على الرغم من عدم تماسك قبائلهم^(٢١)، ويبدو أن ماوية خلفت زوجها على رأس اتحاد بدوي وهي وزوجها كانا الأسلاف السياسيين المباشرين لشيوخ القبائل "فيلارخ" الذين أتوا بعدهم في القرون اللاحقة^(٢٢).

لو استعرضنا العلاقات الدبلوماسية القديمة بين القوى الأساسية في الأزمنة المتأخرة للعالم القديم روما، وفارس، والعرب، لوجدنا أنها قديمة تعود إلى القرن الثالث، ومن هنا نستطيع القول وحسب المعطيات المتقدمة أن الملكة ماوية حكمت قبل تولي الغساسنة الحكم رسمياً من الروم، وأنها كانت تحكم الأقسام الجنوبية من بادية الشام - فلسطين الحالية تقريباً - ولكن يشك في إعطائها لقب ملكة لأن هذا اللقب خاص بالروم، وما كان يعطى للعرب لقب عامل، سيد قبيلة، فيلارخ^(٢٣)، وأنها ارتبطت مع الروم بمعاهدة دفاعية لأنهم كانوا بحاجة إلى دعمها الأمر الذي جعلهم يقبلون الشروط التي فرضتها، وفي هذا دليل على القوة التي وصلت إليها، حتى صار بإمكانها أن تفرض شروطها.

ومن ناحية أخرى يبدو أن الهجوم قد حدث بعد ترك القيصر فالنس ٣٦٤-٣٧٨م، أنطاكية وذلك سنة ٣٧٨م^(٢٤).

على هذا تحدثت أغلب المصادر الرومانية والبيزنطية واليونانية والنصرانية عن ماوية على عكس المصادر العربية التي حاولت استقرارها، فلم أجد إلا إشارة رواها حمزة الأصفهاني قائلاً: (إن اللخمي امرؤ القيس بن عدي ورث أباه عمرو بن عدي وأمه ماوية بنت عمرو أخت كعب بن عمرو الأزدي)^(٢٥).

وقد ذكر أن امرؤ القيس قد أمضى أربعة عشر ومائة عام في الحكم، وهذا الرقم مبالغ فيه من باب إضفاء مسحة أسطورية تزامنت العشرون عاماً وخمسة الأشهر الأخيرة من حكمه مع شابور بن هرمز (٣٠٩-٣٧٩م)، هناك أساس قوي الافتراض بأن هذه المقابلة الزمنية الأخيرة هي وحدها التي تتفق مع الواقع التاريخي، أما أزمنة حكم الساسانيين السابقين فقد وضعت في وقت واحد مع حكم امرؤ القيس بهدف ملء الحقب الزمنية الطويلة التي لم يحفظ لنا العرب عنها أدنى أخبار تشير إلى شخص بعينه يكون قد تولى الحكم من بين اللخمين، وإذا ما وضعنا في حسابنا هذه الاعتبارات إلى جانب حقيقة أن امرؤ القيس اللخمي مات في عام ٣٥٨م، بحوران، واكتشف قبره من عهد قريب في غار الصفاة وعليه كتابة بالحرب النبطي، وتاريخ وفاته فيها "٧ كسلول من السنة ٢٢٣ لبصرى"، وهو يوافق ٧ كانون الأول ٣٢٨م. لتبين لنا وجود اختلاف مع ما تورده المصادر اليونانية واللاتينية لأن موت زوج ماوية الذي خلفته كفيلاً رخ للعرب إنما يرجع إلى عهد فالتر، كما وأن ثورة العرب قد حدثت في عام ٣٧٦م، بالذات. وزيادة على هذا فقد كان لماوية ابنة زوجها من القائد فكتور، فلو حدث وكان لماوية ابن فمن الطبيعي أنه سيرث أباه لا أن ترثه الزوجة وذلك حسب الأعراف السائدة آنذاك أو تحكم وصية عليه إذا كان قاصراً.

وعلى الرغم مما يحيط بالأنساب العربية من خلط واضطراب فمن الجائز أن ماوية كانت أما لامرؤ القيس الثاني الذي يرد ذكره لدى حمزة الأصفهاني وهذا يحتاج إلى الكثير من التحفظ في التفسير التاريخي، والأقرب إلى الاحتمال هو الافتراض بأن

زوج ماوية كان ينتمي إلى فرع جانبي من اللخمين، هذا بينما حملت ماوية اسم عشيرتها الأزد^(٢٠) على نحو ماتبين من رواية حمزة السالفة الذكر.

وهناك إشارة عند الطبري حيث يدعو أم المنذر بن امرئ القيس باسم مارية^(٢١)، ودعاها ابن الأثير ماوية^(٢٢)، وهذا يجعلنا نقف موقف المرتاب.

من كل ما تقدم يمكننا القول: إن ماوية ملكة قبيلة من العرب شبه البدو، كان أسلافهم قد انتقلوا إلى الصحراء وإلى مناطق جردية جنوبي سورية في القرن الثالث، ومن هذا المكان شبه الدائم لمضاربهم المركزية المتنقلة شنوا حروباً وتوسعوا في المنطقة حتى شملت مساحات واسعة، ثم عقدوا اتفاقاً مع الروم، إلى أن كان حكم ماوية زوجة شيخ القبيلة التي تسلمت الحكم بعد وفاة زوجها، باعتبار أنه لم يكن له أولاد وقد استغلت ضعف الإمبراطورية وحروبها مع القوط، فتوسعت شمالاً وجنوباً ثم عقدت معاهدة، وعند تنفيذ مطالبها، اشتركت بالدفاع عن العاصمة البيزنطية بكنية عربية وضعتها تحت تصرف قواد الإمبراطورية، فاشتبكت مع العدو في معركة طويلة، حسم أمرها لصالح الإمبراطورية حيث سارع القوط لرفع الحصار والرحيل إلى المناطق الشمالية في شبه جزيرة البلقان، فقد أدت الجهود المشتركة إلى ردّ العدوان عن أسوار القسطنطينية.

على كل حال إن حكم ماوية الذي تجاهل ذكره المؤرخون العرب وحفظه مؤرخو بيزنطة والكنيسة يفيدنا.

١- في فهم السياسة الرومانية والبيزنطية حيال الحدود الشرقية الصحراوية.

٢- المعاهدة التي عقدها الروم مع قوم ماوية تشكل جزءاً هاماً من تاريخ الأحلاف العربية في القرنين الثالث والرابع للميلاد.

٣- يفيد تاريخ ماوية في التعرف على أول أسقف عربي لمجموعة من العرب المسيحيين.

٤- والأهم من ذلك هي ماوية التي تشد كل اهتمامنا لأنها تستحق مكانة حرمتها بين النساء العظيمات في العصور القديمة، إذ تدل قوة شخصيتها وشجاعتها في الحروب أنها لا تقل عن زينب "زنوبيا" ملكة تدمر أو عن كليوباترا ملكة مصر أو غيرهن كثير (٢٨).

٥- إن قبول شعبها بقيادتها يدل على أن حكم النساء لم يكن مستغرباً عند العرب قبل الإسلام.

٦- إن المصنفات التاريخية البيزنطية ذات أهمية خاصة لأنها هي وحدها التي من شأنها أن تعيننا على تتبع التسلسل الزمني للأحداث، وعلى إثبات الوقائع بطريقة لا تبعث على الشك وذلك من خلال الضباب الذي ران على الرواية المتواترة للقصص والشعر قبل الإسلام الموجودة في بطون المؤلفات العربية.

الحواشي

(١) يحيى، لطفي عبد الوهاب، العرب في العصور القديمة، دار النهضة، بيروت، ١٩٧٩م، ط٢، ص ٢٢٩.

(٢) يوسيفوس، فلافيوس، تاريخ يوسفيوس، بيروت، ١٨٧٢م، الفصل الثاني والفصل الثالث.

(٣) الكتاب المقدس، التوراة، سفر المكابيين، ١-٢.

* آدم: هي في اليونانية أدومية، أطلقت على تلك البلاد لشدة احمرار صخورها الرملية، ورخامها السماقي، وقد كانت بلاد الأدوميين منطقة يمثل حدها الشرقي على وجه التقريب خط ما أصبح يسمى طريق الحج من دمشق إلى مكة، وربما كان وادي العريش هو حدها الغربي، أما جنوباً فقد كانت المنطقة تمتد من رأس خليج العقبة ويقف حدها الشمالي عند النهر المسمى اليوم وادي الأحسى، وهو يجري إلى الشمال الغربي مخترقاً غور الصافية (الصافي) ويصب في الطرف الجنوبي من البحر الميت، وكانت تمر القوافل التجارية بأرضهم فكانوا يفيدون من ذلك فائدة عظيمة، عاصمتهم بصرى، ومن مدنها السعير وطلع وإيلات وأيلة أزيون.

(٤) بيغوليفسكسا، نينا فكتور فنا، العرب على حدود بيزنطة وإيران، الكويت ١٩٨٥م، ص ٦٠.

(5) Marcellinus (Ammianus) Rerum gestarum libri qui Supersunt, 23, 2, 1. P. 266 Berlini, 1871.

(٦) باشميل، محمد أحمد، العرب في الشام قبل الإسلام، بيروت، ١٩٨٧م، ط٢، ص ٧١٦٢.

- (٧) باشميل، المرجع نفسه، ص ١٦٢.
- (٨) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠م، ط١، ج٣، ص ٣٩٦، اثناسيوس: سورية المسيحية ٣٩١/٥.
- (٩) بيغوليفسكيا، المرجع المتقدم، ص ٥٣.
- (10) J. Spencer .Trimingham. Christianity Among the Arabs In Pr. —Islamic Times. Longman London. p. 99.
- (11) Socrates. Historia ecclesla .Stica ,IV ,36, U ,P. 564.
- (١٢) بيغوليفسكيا، المرجع المتقدم، ص ٥٧ . Spencer.Ibid,p.100
- (13) Socrates Ibid. P.574.
- (14) Sozomenos, Historiaecdesiastica, I, vi, 38, ed. R. Hussey, t. II OXO, nii 1960, p. 667.
- (15) Theophanes, Chronographia, ed. c. De Boor, Lipsae ,1888. P. 64.
- (١٦) ميخائيل السرياني، مار، تاريخ ميخائيل، متروبوليت، حلب، ١٩٦٦م، ج١، ص ٢٢٥.
- (١٧) موسل، أ. شمال الحجاز، ترجمة عبد المحسن الحسيني، مؤسسة الثقافة الجامعية، ص ١٢٩.
- (١٨) علي، جواد، المرجع المتقدم، ج٣، ص ٣٩٥.
- (19) Musil, kusejr , Amra , Wien, 1907, p.130.
- (20) Sharpe, History of Egypt. Vol. 2. London. 1885. P.293.

- (٢١) برك وهارفي وبورسك، سبستين وسوزان وغلن، **قديسات وملكات من المشرق السرياني وجزيرة العرب**، ترجمة فريدة بولس وميسون الحميري، دمشق، دار قدمس، ص ٢٥٠.
- (٢٢) برك وهارفي وبورسك، **المرجع نفسه**، ص ٢٥١.
- (٢٣) نولدكة، ثيودور، **أمراء غسان من آل جفنة**، ترجمة بندلي جوزي وقسطنطين زريق، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٣٣م، ص ١٤.
- (٢٤) علي، جواد، **المفصل**، ج ٣، ص ٣٩٥.
- (٢٥) الأصفهاني، حمزة، **تاريخ سني ملوك الأرض والأئبياء**، دار مكتبة الحياة، بيروت، ص ٧٧.
- (٢٦) الطبري، أبي جعفر محمد بن جرير، **تاريخ الطبري**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط ٤ - ج ٢، ص ١٠٤.
- (٢٧) ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن...، **الكامل في التاريخ**، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م، ج ١، ص ٤٣٩.
- (٢٨) زيادة، نيقولا، **المسيحية والعرب**، دمشق، دار قدمس، ص ٢٦٤.

